بشار بن برد

— ٣ —

غـــزله

بقلم الاستاذ أحمد حسنين القرنى

عرفت من اليسير الذى عرضته عليك (١) من شعر بشار فى (عبدة) كيف لبس لها مسوح العاشق الواله ، ولعلى لو لم أشكك فى حبه ما ترددت فى حسبانه من « عشاق العرب » المعدودين ، وما كان لى أن أشك فى صدق حبه لعبـدة لولا أنه هو بنفسه يكرهنى ويكرهك على ذلك .

إننا لنتمثل فى الرجل إنسانا عابثاً لاهياً إذا عرفنا أنه يبادل الحب عشيقتين ، ولا يتعفف عن رميـه بالفجور إن هو تعـدى ذلك ، فما بالك بمن يشبب بالكثيرات ، ويردد ذكر العديدات ؟ ! .

لقد سمعت من تغزله فى (عبدة) ما سمعت ، فاسمعه يناجى عشيقة أخرى تدعى (خشابا) فيقول :

أخشاب ! حقاً إن دارك تزعج ... وإن الذى بينى وبينـك ينهج
فيا كبدا قد نضج الشوق نصفها ... ونصف على نار الصبابة ينضج
وواحزنا منهن يحففن هودجا ... وفى الهودج المحفوف بدر متوج
فان جئتها بين النساء فقل لها : ... عليك سلام ، مات من يتزوج
بكيت ، وما فى الدمع فيك خليفة ... ولكن أحزانى عليك توهج ! !

بربك ألا تحس فى هذه الأبيات حرارة الايمان بحبها ، كما أحسست بها فى كلماته إلى عبدة؟ ثم ألا تكاد تلمس فيها صـدق التعبير عن عاطفة مستعرة وغرام دفين ؟ لا كاد أحس بذلك أو لمسه ، ولكـنه جمال الصنعة ، وقوة التعبير اللتان امتاز بهما شعر بشار... ثم انظر إلى السم الذى يدسه لها فى دسم التغزل، فبعد أن يصفها بأنها بدر متوج فى هودج محفوف يوم زفت إلى عروسها يغريها بهذا الزوج ، ويثير حفيظتها على الزواج فيقول لها : « مات من يتزوج » فأى إغراء هو أنكى من ذلك الاغراء ؟ وأى شىء يثير التبرم إن لم يثره هذا التعبير ؟

الحب من سر السماء ، وإلهام قدسى يوحى بالفضيلة ويعلمها، فهل هو الحب الذى يملى عليه ذلك القول ، أم هو اللهو والعبث ؟ !

(١) راجع الجزأين : الثامن والتاسع من « المعرفة »

ثم يقول لها :

لو كنت تلقين مانلقى قسمت لنا يوماً نعيش به منكم ونبتهج
لاخير فى العيش إن كنا كذا أبدا لا نلتقى ، وسبيل الملتقى نهج
قالوا : حرام تلاقينا ، فقلت لهم : ما فى التلاقى ، ولا فى غيره ، حرج
من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فى سبيل غرامه ، وفى سبيل شيطانه يرسل البيت الأخير حكمة خالدة حتى لا يفوتك أن تتصيد حسان المعانى ، وغرر الحكم من ثنايا طوه وعبثه فتقرؤه وتطرب له جاداً أو هازلا ، وهذا هو سر اللوعة على شعره المفقود ، ومبعث الأسى على ذلك الكنز الضائع .

تلك ثانية من عبث بهن بشار فى شعره ، وأطل عليهن من هيكل الحب يتلو فى كتابه كلمات ساحرة معجزة يذلل بها عصى الدموع ، ويخضع بها جامح القلوب ، وليست (خشاب) هى النهاية التى تناهى إليها ، فدونك (صفراء) التى يقول لها :

أصفراء ! لا أنسى هواك ولا ودى ولا ما مضى بينى وبينك من عهد
إذا هتف القمرى نازعنى الهوى فلم أملك دموعى من الوجد(١)
أبى الله إلا أن يفرق بيننا وكنا كماء المزن شيب من الشهد
وقد كان مابينى — زماناً — وبينكم كما كان بين المسك والعنبر الورد

ولها يقول :

أصفراء ! كان الود منك مباحا ليالى كان الهجر منك مزاحا
وكان جوارى الحى إذ كنت بينها قباحا ، فلما غبت صرن ملاحا

وقد اختلفت الرواة فى البيت الثانى فرواه بعضهم كما مر بك ، ورواه بعضهم على أنه (ملاحا فلما غبت كن قباحا) وهو على كلتا الروايتين ثناء على جمالها ، واستمالة لها ، فهو على الرواية الأولى يزعمها إذا التف حولها حسان المدينة تضاءل جمالهن إلى جانب جمالها وبدين دميمات بالقياس إليها ، وعلى الرواية الثانية يكون حسان المدينة جميلات يكتسبن الجمال بمجاورتها فاذا ابتعدت عنهن وبدين فى شكلهن الطبيعى كن دميمات بابتعاد سنى وجهك الذى كان يشع على وجوههن .

ولا يكتفى بشار بأن تكون خليلاته أو عشيقاته — أو إن شئت ما هو صواب أو أقرب إلى الصواب — لا يكتفى بشار أن يلهو : بعبدة ، وخشاب ، وصفراء فيتعشق (رحمة الله) أيضاً ولم يصل إلى من شعره فيها إلا القليل .

يا (رحمة الله) حلى فى منازلنا وجاورينا فدتك النفس من جار
ماء الصبابة نار الشوق تحدره فهل سمعتم بماء فاض من نار

(١) هكذا فى الاصل

إلا أنى أعتقد أنه أكثر من ذكرها حتى شاع خبره وخبرها ، وحتى جاء بعد (أبو نواس) فتعشق سميتها فقال لها :

أحببت من شعر بشار لحبكمو بيتاً لهجت به من شعر بشار
(يا رحمة الله حلى فى منازلنا وجاورينا فدتك النفس من جار)

وذلك البيت من قصيدة اعتبرها من أرق الغزل ، وسأطلعك عليها عند البحث فى قيمة غزل بشار .

وإن شئت أن تعلم أن التغزل لم يكن فى الواقع إلا مجرد عبث ، وشغف به من حيث هو طريق إلى استمالة قلوب النساء التى تتبعها دائماً قلوب الرجال، فيصل من وراء ذلك إلى ماتطمح إليه نفسه ، إن شئت أن تعلم أن بشاراً لم يكن فى بادىء الأمر إلا كذلك ثم استحال فيما بعد إلى رجل من طبيعته أن يتغزل ولا يمكن إلا أن يتغزل ، ويتلمس أوهى الأسباب إلى التغزل ، إن شئت أن تعلم ذلك فاقرأ الواقعة التالية :

كان الوليد بن يزيد ذا شغف بسلمى بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان أخت زوجته سعدى ، ومن أجل سلمى طلق أختها.. ولكن أباها رفض أن يزوجها منه ، فظل يقاسى : ألم الغرام، وألم الرفض. وأنشده بشار الأبيات الآتية فاستعبر وظل يقول ودموعه جارية : (من لى بمن يمزج كأسى هذه بريق سلمى فيروى ظمأى وتطفأ غلتى) قال بشار :

أيها الساقيان صبا شرابى واسقيانى من ريق بيضاء رود
إن دائى الصدى ، وإن شفائى شربة من رضاب ثغر برود
عندها الصبر عن لقائى ، وعندى زفرات يذبن قلب الجليد
ولها مبسم كغر الأقاحى وحديث كالوشى ، وشى البرود
نزلت فى السواد من حبة القلـ ـب ، ونالت زيادة المستزيد
لا أبالى من ضن عنى بوصل أن قضى الله لى منك يوم جود

أنشأ هذه القصيدة لينال جائزة الوليد بن يزيد ، ولكنه ظل يذكر سلمى ، ويتخيل فيها صورة الجميلة الفتانة حتى صار يردد اسمها فى شعره كأنها إحدى محبوباته ، فيقول فى ذلك العشق السماعى :

إن سلمى والله يكلؤها كالسكر تزداده على السكر
بلغت عنها شكلا فأعجبنى والسمع يكفيك غيبة البصر

ولتعرف الصلة بين غزله والحقيقة فاقرأ له البيتين الآتيين ، وراع تعبيره فيهما بعد أن تعلم أنها معشوقة خيالية لا هو رآها أو تحدث إليها أو سمع منها :

انما عظم سليمى حبتى قصب السكر لا عظم الجمل

وإذا أدنيت منها بصلا غلب المسك على ريح البصل

***

ويأبى أن يختم بهذه المعشوقة الخيالية التى يناجيها مناجاة العاشق المدنف، فيتوجه إلى عشيقة جديدة يدعوها (سعدى) يناجيها أرق مناجاة ، فيقول لها :

لقد كاد ماأخفى من الوجد والهوى يكون جوى بين الجوانح أو خبلا
إذا قال مهلا ذو القرابة زادنى ولوعا بذكراها ووجدانها مهلا
فلا يحسب البيض الأوانس أن فى فؤادى سوى (سعدى) لغانيةفضلا
فأقسم إن كان الهوى غير بالغ بى القتل عن (سعدى)لقدجاوز القتلا

فها أنت تراه يقسم أن حب (سعدى) بلغ به حد القتل ، بل جاوز حد القتل كما قال من قبل لعبدة :

سترى حول سريرى حمراً يلطمن لطماً
يا قتيلا قتلته (عبدة) الحوراء ظلما

كما أنشد سواهن جميعاً :

وكذبت طرفى عنك ، والطرف صادق وأسمعت أذنى فيك ما ليس تسمع
لقيت أموراً فيك لم ألق مثلها وأعظم منها فيك ما أتوقع
فلا كبرتى تبكى ، ولا لك رحمة ولا عنك إقصار ، ولا فيك مطمع

كما تبع هواه الصغيرة والكبيرة ، فهوى : عقيل بنت كعب ، وسمية ، وعذراء أخرى لم يسمها بل يقول فيها :

يا ليلتى تزداد نكراً من حب من أحببت بكرا
حوراء إن نظرت إليك سقتك بالعينين خمرا
وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

فأنت ترى من كل ذلك أن قلبه كان طائراً يقع على كل غصن وينال من كل ثمر ، ولكنه لم يكن ذا قلب يصح فيه ذلك بل كان ذا بصيرة بالشعر، وقوة فى التشبيب أجاد وصفها بقوله:

وقصائد مثل الرقى أرسلتهن فكن شغفا
أوجعن كل منازل وعصفن بالغيران عصفا
من كل لذات الفتى قد نلت نائلة وعرفا

(البقية على الصحيفة ١٢٤٩)